



التغيير عند الإمام عبد السلام ياسين:
مفهومه ومرجعياته وشروطه

د. ربيع حمو

باحث في الفكر الإسلامي وعلم المقاصد،

مدير المركز الدولي للدراسات والأبحاث التربوية والعلمية – المغرب

rahammou@gmail.com

الكتاب: كتاب أعمال المؤتمر الدولي الثاني
في نظرية المنهاج النبوي في موضوع:
التغيير في نظرية المنهاج النبوي
عند الإمام عبد السلام ياسين:
مفهومه وإشكالاته وقضاياها

الطبعة الأولى: 1437هـ/2016م

رقم الإيداع القانوني: 2015MO4442

رقم الإيداع الدولي: 6-792-36-9954-978



فهرس المحتويات

- 09 الكلمة الافتتاحية لمؤسسة الإمام عبد السلام ياسين للأبحاث والدراسات
د . عمر أمكاسو
- 15 تقديم اللجنة العلمية للمؤتمر
أ . د . محمد بن محمد رفيع
- [الجلسة العلمية الأولى: مفهوم التغيير وأصوله في نظرية المنهاج النبوي]
- 25 التغيير: مفهومه ومرجعياته وشروطه في نظرية المنهاج النبوي
د . ربيع حمو/المغرب
- 45 مفهوم التغيير وعلاقته بمفهوم اقتحام العقبة
د . عمر أنور الزيداني/قطر
- 81 نظرية القومة في التغيير
ذ . عبد الرحيم هنداء/المغرب
- 119 التغيير: مفهومه وموضوعه ومقصده بين الإمام النورسي والإمام عبد السلام ياسين
د . أحمد الفراك/المغرب

الجلسة العلمية الثانية (البحوث باللغة التركية): مفهوم التغيير وقضاياها

[ينظر الجزء الثاني من كتاب أعمال المؤتمر]

الجلسة العلمية الثالثة (البحوث باللغة الإنجليزية): مفهوم التغيير وقضاياها

[ينظر الجزء الثاني من كتاب أعمال المؤتمر]

الجلسة العلمية الرابعة: موقع المرأة في التغيير في نظرية المنهاج النبوي

- 157 المرأة ومنهج التغيير في فكر الإمام عبد السلام ياسين
د. سميرة عبد الله سليمان الرفاعي/ الأردن
- 183 موقع المرأة المسلمة من التغيير
د. عمار حكمت فرحان محمود الحديثي/الجزائر
- 221 الوظائف التغييرية للمرأة في فكر الإمام عبد السلام ياسين
د. وفاء توفيق/المغرب
- 251 قضية المرأة المسلمة والتغيير الشامل
د. الجيلالي سبيع/المغرب
- 289 أهمية إصلاح الأسرة المسلمة وحفظ الفطرة
د. المصطفى مبارك إيدوز/المغرب

الجلسة العلمية الخامسة: مركزية الإنسان في التغيير في نظرية المنهاج النبوي

- 317 الإنسان وفلسفة التربية في نظرية المنهاج النبوي
د. حسن حسين عبد الله عياش/فلسطين
- 351 مركزية الإنسان في التغيير عند الإمام عبد السلام ياسين
د. رشيد عموري/المغرب
- 385 نظرية التربية الإنسانية عند الإمام عبد السلام ياسين
د. عبد التواب مصطفى خالد معوض/ماليزيا
- 423 صناعة الإنسان في مشروع التغيير
د. الشيخ التجاني الأحمدى/موريتانيا
- 459 قضايا التربية والتعليم في المشروع المجتمعي للإمام ياسين
د. مصطفى شكري/المغرب

- 501 التعليم بين التغيير والتحرير في المشروع الفكري/الدعوي للإمام ياسين
د. خالد ناصر الدين/المغرب
- 545 دور الشخصية القيادية في صناعة التغيير
د. إيمان عبد الحميد محمد الدباغ/العراق

الجلسة العلمية السادسة:

المدخل السياسي والاقتصادي والاجتماعي للتغيير في نظرية المنهاج النبوي

- 581 التغيير السياسي أساليبه وضوابطه
د. هيثم عبد الحميد علي خزنة/ ليبيا
- 609 التغيير السياسي في نظرية المنهاج النبوي
د. أنوار الجمعاوي/تونس
- 635 معالم التغيير من منظور القومة الاقتصادية في الفكر المنهاجي
د. عبد الرزاق المزيان/المغرب
- 663 التخلف الاقتصادي في العالم الإسلامي وآليات الخروج منه
د. عبد الحميد رولامي/الجزائر
- 689 التغيير في الاقتصاد عند الإمام ياسين
د. أحمد الإدريسي/المغرب
- 711 التغيير الاجتماعي عند الإمام ياسين
د. مجدي محمد محمد قويدر/فلسطين
- 737 مشروع التغيير الاجتماعي في نظرية المنهاج النبوي
د. ليليا شنتوح/الجزائر



تقديم

تكتسي المفاهيم عند كبار المنظرين وأصحاب المشاريع المجتمعية أهمية كبرى لأنها تمثل ذلك النسيج الذي ينتظم تفاصيل مشاريعهم ويخترن تصوراتهم ورؤاهم. كما تشكل تلك المفاهيم أدوات فهم وتحليل للتاريخ والواقع، ومنطلقات تأسيس للمستقبل. لكن من المسلم به أن المفاهيم في هاته المشاريع تقصر عن التعريف بها المصطلحات المعلمة عنها أو التعريفات المختصرة لها، بل يجب استقراء مختلف مدلولاتها من خلال كتاباتهم وتحديد مرجعياتها، وحصر المفاهيم المجاورة لها والمتفرعة عنها، ومختلف توظيفاتها في المجالات والمحاور التي شملتها تأليفهم.

وقد عمل الأستاذ عبد السلام ياسين صاحب نظرية المنهاج النبوي على تحديد المفاهيم المركزية المؤسسة لمشروعه التجديدي ونحت مدلولاتها من خلال استمداد عميق من القرآن الكريم والسنة الشريفة والسيرة النبوية سعياً إلى التأسيس لإجابات عن إشكالات الأمة الراهنة.

وحرصاً منه على «إقامة جسور من أجل الحوار»⁽¹⁾ وضمان ولوج سليم لعتبات نظريته فقد ألف كتاباً مفرداً لهاته الغاية هو كتاب: «مقدمات في المنهاج»، افتتحه بأهمية التحديد المفاهيمي الذي لا يقف عند «المعرفة الأولية بموضوع ما» بل يسعى لمعرفة الحق. وقد اقتفى الأستاذ منهجَه ذلك من أثر أئمة الأمة الذين كانوا «يصدرون كتبهم بفقرات يوضحون فيها مقاصدهم ومصطلحهم ليكون القارئ على بينة من المسار المطلوب»⁽²⁾.

وإن الدارس لتراث الإمام المجدد رحمه الله يجد أن التغيير مفهوم مركزي في مشروعه إذ يشكل الإطار العملي لتنزيل نظرية المنهاج النبوي، فالتغيير «قيام من السقطة الكبيرة التي انحدرت فيها الأمة عدة قرون»⁽³⁾، لذلك تطلّب الاشتغال على هذا المفهوم تحديداً

(1) ياسين عبد السلام، مقدمات في المنهاج، الطبعة الأولى: 1989، ص: 13.

(2) نفسه، ص: 15.

(3) ياسين عبد السلام، سنة الله، مطبعة النجاح الجديدة البيضاء. الطبعة الأولى: 2005، ص: 292.

استدعاء المنهج الاستقرائي التحليلي؛ وهو استقراءٌ ساءلٌ مختلف إنتاجات الإمام حول مفهوم التغيير ومرجعياته وشروطه.

وقد انتظمت ما حصلته من إجابات من خلال ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: مدلولات التغيير في نظرية المنهاج النبوي
- المبحث الثاني: سؤال مرجعية التغيير في نظرية المنهاج النبوي
- المبحث الثالث: شروط التغيير في نظرية المنهاج النبوي

المبحث الأول: مدلولات التغيير في نظرية المنهاج النبوي

إذا كان المدلول اللغوي للتغيير يدور حول الصلاح والإصلاح والانتقال من حال إلى حال⁽¹⁾، فإن مفهومه في نظرية المنهاج النبوي يدور حول هاته المعاني من خلال خمس مدلولات تناولها هذا المبحث:

التغييرين مقصده الأصلي والتبعي:

إن مقصد التغيير الأصلي عند صاحب نظرية المنهاج النبوي هو بناء الإنسان ليحقق العبودية الخالصة لله تعالى فهو «يدور حول الإنسان، ويخُدُّ غاية تحرير الإنسان من كل عبودية، ليدخل في العبودية لله عز وجل»⁽²⁾. لذلك ما فتى الإمام رحمه الله يؤكد أن أساس بناء الأمة ينطلق من تربية الإنسان ليتسدّد قصده في الحياة، وأن رسالة الجماعة التي تنهض بأعباء التغيير لأعضائها وللأمة هو سعيها «لأن يكون الله عز وجل غاية كل فرد من العباد. أن يكون ابتغاء رضاه، والسباق إلى مغفرته وجنته، والسير على مدارج الإيمان والإحسان لمعرفة، والوصول إليه، والنظر إلى وجهه الكريم، منطلق الإرادة، وحادي المسارعة وقبلة الرجاء»⁽³⁾؛ فالتغيير بهذا المدلول أصل و«كل تغيير في السياسة والاقتصاد وإنما هو تبع لهذا التغيير الكلي الجوهرى للإنسان»⁽⁴⁾.

وإذا كان تغيير بُنى المجتمع وتنشيط اقتصاده وتطوير وسائله من أهداف التغيير في نظرية المنهاج النبوي فإن مقصده الأسمى هو تحقيق «التغيير الجذري» في تصور الإنسان لنفسه، وللعالمين الدنيوي والأخروي، وللمسؤولية بين يدي الله بعد الموت لا سيما لدى الحاملين لمشروع التغيير الساعين إلى إخراج الأمة من غثائتها والارتقاء بها إلى مقام الشهود العمراني.

(1) أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، عام النشر: 1399 هـ - 1979 م، مادة: غ-ي-ر.

(2) ياسين عبد السلام، إمامة الأمة، دار لبنان للطباعة والنشر. الطبعة الأولى: 2009، ص: 86.

(3) ياسين عبد السلام، المنهاج النبوي، الشركة العربية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى: 1989، ص: 8.

(4) نفسه، ص: 88.

التغيير قومة:

اختار الأستاذ ياسين مفهومًا قرآنيًا أصيلاً يختزن جميع مدلولات التغيير، هذا المفهوم هو: «القومة»، ومفهوم القومة عند الإمام مفهوم شامل ومتكامل، يشمل بناء الإنسان ليقوم بوظيفة العبادة لله تعالى، والقيام بالقسط الاجتماعي والاقتصادي من خلال مشروع مجتمعي ينشد إقامة العمران الأخوي بديلاً عن واقع البؤس والعنف والمادية الذي أدخل الإنسان في دوامة من ضنك العيش؛ إذن: «التغيير قومة لا تتجزأ»⁽¹⁾.

وإذا كانت كثير من المشاريع التغييرية تعتبر أن طليعة التغيير هي التي ينبغي أن تستأثر بفعل التغيير، وتسهم فيه الطبقات الشعبية من خلال انتفاضتها على الأنظمة المستبدة، ثم تنتقل إلى وضع انتظار قطف ثمار التغيير؛ انتظارية أثبتت كثير من التجارب الإنسانية أنها صارت من أكبر العقبات في وجه التغيير، بل توفر أكبر فرصة لقوى الظلم والاستبداد أن تستجمع قواها لإعادة صياغة نفسها لتعيد التحكم؛ لذلك يعتبر الإمام ياسين أن بناء الأمة الراشدة القوية من أولويات التغيير لتحقيق قومة حقيقية تتشكّلنا من واقع إلى واقع؛ فيصف القومة الإسلامية بأنها: «ليست عبارة عن انتفاضة جماهيرية تهز أركان الظلم وقد انتهى كل شيء. ليست هدية يأتي بها جند الله للأمة باردةً هنيئةً مريئةً. ليست إجراء إدارياً يصلح أمر الأمة عقّب تطبيقه. إن القومة تعني، كما لا نملّ نكررها، أن نعود أمةً مجاهدةً كما كنا، راشدةً، تقرر مصيرها بإرادتها الحرة، وتفرض قرارها بقوة الساعد المنتج، وتدبير العقل المتحرر من الخرافة وفلسفة الإلحاد، وتنظيم الطاقات البشرية والاقتصادية. القومة أن يصبح أمرنا شوري بيننا، أن تحمل الأمة عبء الحاضر والمستقبل»⁽²⁾.

القومة في منطلقها تغيير لنظرة عامة الشعب لوظيفتهم، وتعبئتهم ليسهموا في البناء، ولتأسيس الوعي لديهم بحقيقة التغيير ومؤنثته وأنه مسار، «إن القومة الإسلامية يجب أن تقدم للعامة وللجماهير، وترسخ في عقولنا، على أنها فاتحة عهد طويل من البذل (التضحيات) والعمل الدائب. من ماضينا الفتني مخلفات ثقال، جروح مشخنة في نفوس الأمة وعقولها وأحوالها»⁽³⁾.

(1) ياسين عبد السلام، حوار مع الفضلاء الديمقراطيين، مطبوعات الأفق الدار البيضاء. الطبعة الأولى: 1994، ص: 173.

(2) ياسين عبد السلام، إمامة الأمة، ص: 45 - 46.

(3) ياسين عبد السلام، المنهاج النبوي، ص: 241.

التغيير اقتحام عقبة:

يصف الأستاذ ياسين فعل التغيير وحركيته على مستوى الفرد والجماعة والأمة بفعل اقتحام العقبة، وقد وُظف الإمام هذا الوصف لما له من دلالات قرآنية⁽¹⁾ تعبر عن هوية التغيير الذي تتغياه، فيعرف اقتحام العقبة بأنه «تحرك إرادي تتعرض له العقبة فتمانعه ويغالبها حتى يتم الاقتحام. حركة الفرد المؤمن في سلوكه إلى الله عز وجل، وحركة الجماعة المجاهدة في حركتها التغييرية، وحركة الأمة في مسيرتها التاريخية»⁽²⁾.

كما تستحضر نظرية المنهاج النبوي مختلف التحديات التي تجابه الفرد المؤمن في تزكية نفسه، والارتقاء به لتحقيق كرامته الإنسانية وأداء وظيفته الاستخلافية، والجماعة التي تسعى إلى الارتقاء بأمتها إلى وظيفة الشهود التي ارتضاها الله لها، وهي عقبات ثلاثة:

1. «الذهنية الرعوية: وهي ذهنية النفوس القاعدة التي تنتظر أن يفعل بها ولا تفعل، وأن يدبر غيرها لها وهي لا تقدر أن تدبر. أولئك قوم يحق عليهم قول رسول الله ﷺ: «من مات ولم يغزو ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من نفاق».

2. الأنانية المستعالية أو المتمتعة: يعوق أصحابها عن اقتحام العقبة امتلاء ما هم فيه وطلب المزيد مما هم فيه. قوم ظلموا أنفسهم وظلموا الناس!

3. العادة الجارفة للمجتمعات المسلمة في تيار التبعية للوضع السائد، المانعة لنا أن نعرف معروفا بميزان الشرع، أو ننكر منكرًا يذمه الشرع، ففتنة!

ثلاث تغييرات ضرورية أن يحدثها الدعاة بتربيتهم وتنظيمهم في الجو الفكري والنفسي والعملية في الأمة. ودون التغيير مقاومة الحكام واضطهادهم للدعاة. دونه جهل المسلمين بالإسلام. دونه هذه الحضارة المادية التي احتلت نفوسنا وأرضنا وحياتنا السياسية واليومية ببضائعها وأفكارها وصنائعها فينا ومكرها»⁽³⁾.

وإذا كان فعل التغيير بهذا العمق، وأمامه كل تلك التحديات النفسية والفكرية والواقعية،

(1) قال الله تعالى في الآيات (10 - 18) من سورة البلد: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾.

(2) ياسين عبد السلام، مقدمات في المنهاج، ص: 16.

(3) المنهاج النبوي، ص: 15.

فمن أين منطلق الاقتحام؟ وكيف تتولد الإرادة لمغالبة الواقع، وتحقيق التحرك الإرادي لتحقيق مقصود التغيير إحسانا على مستوى الأنفس، وعدلا في الأرض؟

يجيب الإمام أن الحاسم في هاته المعادلة هو توتر ثلاثي الأبعاد يحصل للفرد ويمتد أثره، تؤثر القلب الذي تحرك فيه الشوق لابتغاء مرضاة مولاه، فانفتحت بصيرته على حقيقة الوجود والمآل، فتحررت جميع مداركه وقواه اجتهادا من أجل تعرف طريق خلاصه الفردي وخلاصه أمته الجماعي؛ والتوتران السابقان لا يُمكننا من بلوغ التغيير مداه إلا إن ظلت الإرادة متقدمة على مدى المسار من واقع الأمة المأزوم إلى مستقبلها المنشود. يقول الأستاذ ياسين: «إن توتر القلب شوقا إلى الله عز وجل يبقى أمانا جميلة عقيمة إن لم يصحبه توتر العقل لمعرفة الشريعة، الطريق، المنهاج، الكتاب والسنة (كلها مترادفات)، ولم يصحبه توتر الإرادة على مدى الإنجاز وقطع المراحل. بين مرمى الطرف ومحط الأشواق وبين مواقع الأقدام في الواقع الآني مسافات شواسع»⁽¹⁾.

تغيير كليات لا انحباس في جزئيات:

إن سؤال الأولويات حاسم في تحديد مسار التغيير والتأثير في مآلاته، والمتأمل في واقع كثير من تيارات الأمة يجد أن من أعظم ما أتيت منه اختلال سلم الأولويات في فعلها التغييرية؛ وهذا السؤال الحرج عالجهته نظرية المنهاج النبوي من زاوية قراءة واقع الأمة ومسار التردّي الذي هوت فيه، وأسبابه الحقيقية مع تمييزها عن أعراضه وتجلياته؛ فلما كان موطن الداء الخراب الذي أصاب النفس المسلمة لما ابتعدت عن هدي دينها، وموطن الداء الذي أتيت من قبله الأمة انتقاض عروة الحكم واستحالتها استبدادا ووراثة بعدما كانت عدلا وشورى؛ وجب استجماع الجهد واستفراغ الوسع في هذين الثغرين؛ أما الانشغال بمظاهر الفساد التي نتجت عن أصل الداء فسيكون ضربا من هدر الطاقات، لذلك يرى الإمام «ألا نعلم إلى الجزئيات من ذلك نتخذها ميادين لمعارك جانبية»⁽²⁾.

وهذا الترجيح في الأولويات عند الإمام نظر تحليلي يعتبر بمقاصد التغيير ومدى إفضاء وسائله إلى تحقيقها، لذلك نجدّه يحذر أن ينصرف الجهد في تتبع مظاهر الفساد والغفلة عن جذوره وال منابع التي تغذيه، فيختصر فعل التغيير في «التذمر، واللعن، وشتم الواقع وملاحقة

(1) ياسين عبد السلام، مقدمات في المنهاج، ص: 74.

(2) ياسين عبد السلام، المنهاج النبوي، ص: 263.

الزجاجات تكسر، والمجرمين الصغار، والفجار العابثين، حتى يصبح ذلك متنفساً للضمير الإسلامي المعذب، وحتى يصبح آخر الأمر الفتك بعاشر في الشارع، واقتحام حانة، أهدافاً في حد ذاتها»⁽¹⁾. وهنا يحذر الإمام من صرف الجهد «أسى على ثمار الفروع»، ونغفل عن الأسئلة الضرورية: عم تتولد المناكر؟ أين عشاها؟ كيف تفرخ؟ كيف تنمو؟ من حاميتها ومخططها؟»⁽²⁾.

كما أن الانشغال ببعض جزئيات الدين والتي قد تكون مثار اختلاف يوقع أصحابه في التنطع، وإيقاع الأمة في الفتنة بدل انتشالها منها؛ وفي ذلك يقول: «إنما التنطع أن يعمد بعض الناس إلى جزئيات من الشريعة يؤولها بفهمه، ويسخر فهمه لتغليب شهوته في الظهور، ليفتن المسلمين والمؤمنين»⁽³⁾.

إن دعوة الإمام إلى الانشغال برأس الفساد وأصوله ليس استهانة بمظاهره وآثاره بل سعياً إلى تغيير المنكر من أساسه، أما تتبع الاختلالات الفرعية فيؤدي إلى إنهاك الجهد دون تحقيق التغيير المنشود، بل يمكن أن تصطنع دوائر الفساد من حين لآخر قضايا هامشية جزئية لتشغل المصلحين والدعاة ونخب الأمة وتلهيهم عن قضيتهم الكبرى.

التغيير فعل متدرج وفق سنة الله:

إن تحديد معالم التغيير المنشود حاسم في رسم مساره تحقيقه وتقدير زمن إحلاله والتخطيط له؛ لذلك تنبه نظرية المنهاج النبوي إلى عدم الاستعجال والتدرج في سنة الله في التغيير، لأن الغفلة عن هذا المحدد قد يدفع إلى الحماسة التي تريد أن تطوي المراحل وتقفز فوق الواقع فتقع إما في العنف أو الارتداء في منظومة الاستبداد تتوهم التغيير من داخل بنيتها، لذلك تدعو النظرية إلى العمل المتدرج الصبور، والحل المتشد، والعمل المنهاجي المستوعب لكل جوانب المشكلات»⁽⁴⁾.

كما تقف نظرية المنهاج النبوي عند فجوة في الفكر الإسلامي واسعة تقع بين «مثالية النموذج النبوي والنداء القرآني الخالدين وبين ما تعانيه الأمة من بأساء على أرض الواقع،

(1) ياسين عبد السلام، المنهاج النبوي، ص: 394.

(2) نفسه، ص: 394.

(3) نفسه، ص: 264.

(4) نفسه، ص: 293.

أرض الغثائية والاستضعاف والفقير والجهل والعبودية للطاغوت. كأن بعضنا يتصور أن جند الله يوم يصلون إلى الحكم يكفيهم أن يكنسوا الواقع البغيض بجرة قلم أو ضربة سيف كما كان، ولا يزال، يسمع عامتنا عن خرافات البطل الذي يطرح الآلاف من أعدائه بحركة حسامه⁽¹⁾. إن وجود تلك الفجوة قد تسبب في تسرب الفكر الخرافي إلى فئة من الأمة وفئة أخرى آمنت بالاحتمية المادية الجدلية فلم تعد ترى التاريخ البشري إلا صراع طبقات وعصبيات بمعزل عن السماء والعامل الغيبي وما وعد الله به عباده الصالحين من نصر، لذلك لا يرى الإمام فرقا «بين خرافية الحالين من المسلمين وخرافية معتقدي الاحتمية التاريخية إلا أن عقيدة هؤلاء تُحْيِي فيهم جذوة الصراع وتُضْرِمُ ناره، بينما تقتل خرافية أولئك روح الجهاد»⁽²⁾.

(1) ياسين عبد السلام، مقدمات لمستقبل الإسلام، مطبعة الخليج العربي، الطبعة الأولى: 2005، ص: 9.

(2) نفسه، ص: 29.

المبحث الثاني: سؤال مرجعية التغيير في نظرية المنهاج النبوي

يكتسي سؤال المرجعية في فعل التغيير أهمية بالغة في نظرية المنهاج النبوي، فإذا كان الكتاب والسنة المرجعية العليا لأي مشروع إسلامي، وهذا ما أكده صاحب النظرية رحمه الله إذ قال: «في كتاب الله عز وجل وحده علم هذا التغيير الإسلامي، وفي قلوب العلماء العارفين بالله نور الإيمان، وفي السيرة النبوية الشريفة النموذج»⁽¹⁾. لكن الإشكال المؤرق والحاسم هو «فبأي عقل وبأية إرادة نحن مقبلون على تطبيقهما؟»⁽²⁾ - أي الكتاب والسنة. بين الانحباس في فهم سطحي للكتاب والسنة، منغلقي عن فقه التاريخ وإدراك تحديات الواقع، وبين فهم للدين فروعياً انحصر في جزئيات العبادات الفردية نحتاج إلى الاستمداد من معين القرآن الكريم وهدى السنة النبوية للتأسيس للعلم الكلي الذي «يؤدي وظيفة إحياء الأمة وإعادتها إلى حضن الشريعة»⁽³⁾.

حدد الإمام ياسين رحمه الله قضية المرجعية في تحديد المنهاج الذي ينبغي أن نسلكه ليلبغ فعل التغيير غايته، وهو «طريق الإيمان والجهاد إلى الغاية الإحسانية التي تعني مصيرهم الفردي عند الله في دار الآخرة، وإلى الغاية الاستخلافية التي ندبوا إليها ووعدوا بها»⁽⁴⁾. وقد عاد الإمام في كتاب مقدمات لمستقبل الإسلام إلى تعريف جامع للمنهاج بأنه: «التطبيق العملي للشريعة، وإنزالها على أحداث التاريخ في الإطار الزماني والمكاني والاجتماعي الاقتصادي السياسي المتغير المتطور، تمثل السيرة النبوية نموذجاً فذا له، لكن نموذجاً حياً قابلاً للتجدد في روحه وإن تنوع الشكل»⁽⁵⁾.

إن المنهاج بهذا المدلول سبيل للتغيير يتخذ من الكتاب والسنة مرجعية، والسيرة النبوية نموذجاً للاقتداء في التربية والجهاد والحكم، لذلك يدعو الإمام رحمه الله إلى الفهم الواسع المتحرك للسنة الذي يميز بين ما كان تعبداً من أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتقيراته يجب

(1) ياسين عبد السلام، إمامة الأمة ص: 88.

(2) ياسين عبد السلام، المنهاج النبوي، ص: 212.

(3) نفسه، ص: 214.

(4) ياسين عبد السلام، المنهاج النبوي، ص: 3.

(5) ياسين عبد السلام، مقدمات لمستقبل الإسلام، ص: 25.

اتباعه وعدم التحول عنه، وبيّن « ما كان منها سلوكا سياسيا ومعالجة لحياة الناس وسياسة للمال والجهاد»⁽¹⁾ ووجب استقاء الحكمة منه واتخاذ مرجعية في التجديد للإجابة عن الإشكالات الراهنة التي تعترض الفرد في سلوكه إلى الله تعالى، والأمة في تحقيق غايتها الاستخلافية على جميع المستويات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. المنهاج بهذا المدلول معينه الوحي، لكنه ليس علما نظريا محلقا في سماء الفكر، بل إمام للعمل وناظم لتفاصيل المشروع التغييرى.

(1) ياسين عبد السلام، مقدمات لمستقبل الإسلام، ص: 25.

المبحث الثالث: شروط التغيير في نظرية المنهاج النبوي

إن فعل التغيير في نظرية المنهاج النبوي يستحضر العامل الغيبي بما هو وعد من الله تعالى بالنصر لمن اتبع سبيله، لكنه أيضا عمل وفق سنة الله في التغيير توفيراً للشرط الذاتي في مدافعة الباطل، واتخاذاً للأسباب، واقتفاءً لسبيل الحكمة لإحلال العمران الأخوي؛ كل ذلك اقتداءً بسنة الرسول ﷺ إذ يقول الإمام رحمه الله: «ولن يبلغ أحد ولا معشار ما خص به محمد ﷺ من التوفيق وكل خصال الخير. ومع خاصية النبوة والرسالة والعصمة فإن قيامه ﷺ تدرج على سنة الله في النبيئين قبله، واندرج جهاده في تاريخ الأرض وهو صراع ومدافعة ومغالبة»⁽¹⁾.

ويمكن إجمال شروط التغيير في نظرية المنهاج النبوي في أربعة شروط:

الشرط التربوي الإيماني:

إن العامل الذاتي مركزي في نظرية المنهاج النبوي إذ فعل حامل التغيير لا يحكمه الامتثال التنظيمي فقط، بل الحافز الأقوى ينبع من قناعة داخلية تحول جميع حركاته تعبداً لله تعالى، فيدفعه ذلك إلى الإلتقان في أداء وظائف الدعوة ومهمات التغيير إذ «صناعة القومة تريد من جند الله، مع الإيمان بالله والسباق إليه، مشاركة في الفهم والتنفيذ بحافز من داخل، بحافز الإيمان والبذل في الله. ولا تأتي الطاعة لنظام الصف إلا مكتملاً من خارج»⁽²⁾. كما أن الشرط التربوي الإيماني هو الكفيل ببناء الشخصية المومنة المحسنة والمدافعة للباطل والفساد بمختلف أنواعه دون عنف، وهو الضامن ليكون عملها في المجتمع صلاحاً وإصلاحاً دون تحكّم غضب أو الارتهان إلى أغراض مادية دنيوية.

الشرط التنظيمي:

إن الطليعة المجاهدة هي نواة التغيير، لذلك فإن تأسيس هاته النواة الحاملة لهم التغيير من أولويات عمل التغيير، يقول الأستاذ ياسين: «إن استراتيجية التغيير الإسلامي، كما

(1) ياسين عبد السلام، مقدمات لمستقبل الإسلام، ص: 36.

(2) ياسين عبد السلام، المنهاج النبوي، ص: 10.

نقرأها في السيرة النبوية وفي القرآن الكريم، تتأسس على إرادة جماعة مجاهدة مبنية بناء خاصاً⁽¹⁾؛ وحتى تكون لهاته النواة قوة الإشعاع والتغيير لا بد بالموازاة مع العمل التربوي الإيماني حسن استثمار طاقات أفرادها، وأن تشكل من خلال بنائها الداخلي نموذجاً «تندمج فيه الخصال الروحية الأخلاقية بالقدرات العقلية التدبيرية»⁽²⁾.

وقد أولى الإمام اهتماماً كبيراً بالشروط التي ينبغي توفيرها داخل جسم الطليعة التي تنهض بأعباء التغيير، فحاملو همّ الأمة والعاملون لعزتها جواهر نفيسة تزداد نفاسة وقوة إن تكاثفت في تنظيم يجمع جهودها ويرص صفوفها، ويُسدّد فعلها، لكن قوة هذا التنظيم رهينة بطبيعة النواظم التي تربط أعضائها، وهي: الحب في الله، والنصيحة والشورى، والطاعة.

وقد استمد الإمام من حديث رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسم إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» تشبيه التنظيم بالجسد، تشكل كل ناظمة مكوناً من مكوناته يضمن سلامته، «فالمحبة في الله في نظرنا لحم الجسد ودمه. وهوها وحدها جسم رخو لا يقوم لجهاد. والهيكل العظمي هو التناصح والتشاور لما فيهما من صلابة في الحق تشبه صلابة العظم في الجسم. والتناصح والتشاور بلا محبة تغطي العيب، وتتجاوز عن الهفوة، فقعة آراء، وأنانيات، وتأجيج خلاف. ثم لا يكون الجسد حياً إلا برئيس يقوده، وأجهزة تنفذ أوامر الرئيس، فالرئيس في جسد اللحم والدم والعظم العقل الأمر، والرئيس في جسم الجماعة المؤمنة العضوية الأمير ومعه سلم الإمارة بمثابة أجهزة الجسد»⁽³⁾.

الحب في الله: إنه الرابطة التي تجمع بين أعضاء التنظيم والتي تميزه عن باقي التنظيمات، «فلا جماعة إلا بتحاب في الله وصحبة فيه»⁽⁴⁾. إن هاته الناظمة تشكل الطاقة الدافعة لطلیعة التغيير نحو تحقيق أهدافها، والدافعة أيضاً لأنانيات الأنفس.

النصيحة والشورى: إذا كان عماد مشروع العمران الأخوي الذي تنشده نظرية المنهاج النبوي على صعيد القلب حب الله ورسوله والمؤمنين، فإن عماده على صعيد الفكر

(1) ياسين عبد السلام، الإحسان، مطبوعات الأفق الدار البيضاء. الطبعة الأولى: 1998، 2/367.

(2) ياسين عبد السلام، العدل، ص: 145.

(3) ياسين عبد السلام، المنهاج النبوي، ص: 82.

(4) نفسه، ص: 83.

والفهم والرأي والسياسة الشورى⁽¹⁾، كما أن النصيحة تشكل الآلية التنظيمية الذاتية التي تتيح تقويم الذات وتصحيح المسار، ومعالجة مظاهر الاختلال التي قد تعترى صف جند الله عند أداء مهماتهم في البناء والتغيير. وقد وقف الإمام رحمه الله عند ضوابط النصيحة والشورى التي تحفظ المحبة بين أعضاء التنظيم، وتمكن من الاستفادة من تنوع الأفكار وتعددتها؛ وقد قسّمت تلك الضوابط إلى ضوابط أخلاقية إيمانية، وأخرى منهجية تديرية؛ لكن «الضابط العام في المشورات هو أن تكون دينا أي نصيحة لله. ولرسوله وللمؤمنين. وعلى كل مؤمن أن يوطن نفسه لينتقد بصراحة وحزم، وأن يوطنها على تقبل النقد، وأن يوطنها على السكوت والاعتراف بالخطأ، وأن يعودها داخل المجلس وخارجه أن تحاسب وتؤدب. وأن يكون هينا لنا ذليلا - أي سهلا - على إخوته إن نصحوه. ويقول كلمة الحق كما يراها في غير عنف لكن بصدق لا يخاف في الله لومة لائم»⁽²⁾.

الطاعة: ومقتضاها أنه بعد المشورة والحسم والترجيح وجب الانصراف إلى العمل وتنزيل القرارات المتخذة، إذ «الشورى في ميزان الشريعة مرحلة للتفاهم ضرورية لكنها وحدها لا تفضي إلى تنفيذ إن لم يكن القرار القابل للتنفيذ والطاعة الملزمة»⁽³⁾.

الشرط المنهجي: الحكمة العقلية

تدعو نظرية المنهاج النبوي إلى ضرورة قراءة تاريخ الأمة من منظار الوحي لتشخيص أدواء الأمة، «فمن الفقه العميق لما حل بنا من انحطاط أمس البعيد والقريب يبدأ التغيير»⁽⁴⁾؛ بعد ذلك تأتي ضرورة تحديد أهداف التغيير والواقع الذي سيتنزل فيه «فمعرفة موضوع التغيير، وحجمه، وكفه، وتطوره، وقوى الصراع فيه ومن حوله، مقدمة وباب ليدخل جند الله بإرادته الإيمانية على المستقبل من باب العلم»⁽⁵⁾.

ولما كان التغيير المنشود يتطلب استعدادا وعملا دؤوبا على مستوى تحليل واقعا، وتقديم البدائل لانتشال الأمة من برائته، فإن الحكمة تقتضي التهيؤ «على مستوى الأرقام

(1) ياسين عبد السلام، المنهاج النبوي، ص: 85.

(2) نفسه، ص: 88.

(3) نفسه، ص: 89.

(4) ياسين عبد السلام، تنوير المؤمنات، مطبوعات الأفق الدار البيضاء. الطبعة الأولى: 1996، 1/38.

(5) ياسين عبد السلام، المنهاج النبوي، 224.

والإحصاء، والزمان والمكان، والموارد والإمكانات استعداداً ليوم القومة وما بعدها، استعداداً لجهاد البناء⁽¹⁾.

كما أن الرفق والأناة، التدرج والتؤدة، وتوعية الأمة وأخذ الواقع الدولي بعين الاعتبار؛ كل ذلك من الحكمة التي ينبغي أن يأخذها حامل لواء التغيير بعين الاعتبار حتى لا يقع في اليأس عند أول عقبة، بل يجب أن يقتدي «بالجهاد الصابر الطويل النفس الذي عالج به رسول الله ﷺ النفوس والأوضاع، ويعتبر بالرفق الذي لئّن به الصعاب، والتؤدة التي قابل بها تعجل الجاهلين إلى الشر، والحلم والمدارة»⁽²⁾.

الشرط المجتمعي: تكوين السواد الأعظم المناصر للتغيير

إن فعل التغيير في نظرية المنهاج النبوي إمامة للأمة نحو صلاح أمرها، لذلك فتأطير الأمة وتوعيتها بوظيفتها وإعادة الثقة إليها شرط ضروري في فعل التغيير، إذ التغيير ليس مجرد بنيات إدارية تستبدل بأخرى؛ لذلك فشرط حاسم في التغيير هو الانتقال من واقع أمة مهمشة مستقيلة من وظائفها في الفعل والإصلاح والمراقبة، إلى أمة مشاركة ومنتقدة وبناءة ومتحملة لمؤونة التغيير في المرحلة الانتقالية؛ فالتغيير قبل القومة وبعدها لا يُملى من فوق، بل لا بد أن «يسنده الاقتناع الشعبي، والمشاركة المتحمسة الراغبة من جانب السواد الأعظم»⁽³⁾. كما أن هذا السواد ينبغي تأهيله وإشراكه في التدبير ليكسب «القدرة على مسك زمامه بنفسه، على مراقبة الحاكم، على محاصرة المنكر ومحاربه، على اليقظة الدائبة، والمشاركة الفعالة، في كل صغيرة وكبيرة من أمر المسلمين»⁽⁴⁾.

كما تؤكد نظرية المنهاج النبوي على ضرورة إسهام جميع قوى الأمة ونخبها في فعل التغيير، لذلك دعا الإمام المجدد رحمه الله إلى حوار بينها للتأسيس «لميثاق تلتف حوله مكونات مجتمعاتنا»⁽⁵⁾، ليشكل «قاعدة سياسية متعددة التنظيمات الحزبية والنقابية

(1) ياسين عبد السلام، المنهاج النبوي، ص: 239.

(2) ياسين عبد السلام، تنوير المومنات، 1/ 68.

(3) ياسين عبد السلام، إمامة الأمة، 91.

(4) نفسه، ص: 32.

(5) ياسين عبد السلام، الإسلام والحداثة، ص: 258.

والمهنية»⁽¹⁾، تعمل من خلالها جميع القوى لانتشال الوضع من الإرث الثقيل من الفساد الذي أحدثه الحكم العاوض والجبري؛ عمل وإصلاح «على بساط المروءة وفي ظل الميثاق»⁽²⁾.

(1) ياسين عبد السلام، العدل، ص: 629.

(2) نفسه، ص: 629.

خلاصات وتوصيات

إن هذه الورقة البحثية - من خلال غوصها في مفهوم التغيير من خلال مدلولاته ومرجعياته وشروطه في نظرية المنهاج النبوي - وقفت عند الخلاصات التالية:

- مفهوم التغيير مفهوم عميق ينطلق أساسا من تصحيح وجهة الإنسان في حياته لتحقيق له السعادة في الدنيا والآخرة.
- إن التغيير الذي تدعو إليه النظرية ليس إصلاحات جزئية لظاهر الحياة، بل هو مشروع مجتمعي متكامل واضح الأسس والمعالم على المستوى الاجتماعي والسياسي والاقتصادي.
- التغيير المنشود يستدعي تكوين القوة الاقتحامية السلمية التي تستطيع مغالبة الباطل من خلال فعل ممتد حكيم سديد في كل خطواته.
- مرجعية التغيير العليا عند الأستاذ عبد السلام ياسين رحمه الله هي الكتاب والسنة بنظر تجديدي يقدم إجابات عن إشكالات الأمة الراهنة وسبل استنهاضها.
- السيرة النبوية تظل النموذج الأسمى لفعل التغيير وفق سنة الله، لكنه نموذج حي خالد لمن نفذ إلى مقاصده دون الانحباس في الأشكال التي ارتبطت بسياقات تاريخية.
- التغيير سيرورة وعمل متواصل من البناء قبل قيام الدولة المتحررة من سلطان الاستبداد، وبعده، وأثناء العمل لإنشاء الوحدة الإسلامية تحت ظلال الخلافة على منهاج النبوة.
- يتكامل في مفهوم التغيير عند الإمام الشرط التربوي الإيماني مع الشرط التنظيمي لإقامة طليعة التغيير، التي عليها أن تستفرغ الجهد في التخطيط الاستراتيجي لتنزيل مشروعها العمراني من خلال إشراك مختلف قوى المجتمع وطاقات أبنائه.
- إن ضعف التعبئة في صفوف الشعب قد يشكل خطرا أمام استكمال التغيير مراحلها وبلوغ غاياته عند استعجال ثمراته دون تحمل مؤنثته.

أما التوصيات التي تقترحها الورقة فهي:

- ضرورة تعميق البحث في مفهوم التغيير في نظرية المنهاج النبوي في كل مرحلة من

مراحل التغيير (مرحلة القومة والتحرر من الفساد والاستبداد - مرحلة بناء الدولة القطرية - مرحلة بناء وحدة الأمة الإسلامية)، إذ عدم التمييز بين هاتين المرحلتين يوقع لبسا كبيرا عند القارئ، ويحجب الباحث عن استيعاب حقيقة التغيير الذي تتغياها النظرية.

■ الدعوة إلى تنظيم ندوات دراسية وأعمال بحثية لتفصيل مفهوم التغيير في نظرية المنهاج التربوي على مستوى: - البناء التربوي للإنسان - تدبير المرحلة الانتقالية في مسار التغيير - معالم التغيير الاقتصادي والاجتماعي.

لائحة المصادر والمراجع

- أبو الحسين، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، (المتوفى: 395 هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، عام النشر: 1399 هـ - 1979 م.
- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241 هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001 م.
- ياسين عبد السلام، المنهاج النبوي، الشركة العربية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى: 1989.
- ياسين عبد السلام، الإحسان، مطبوعات الأفق الدار البيضاء. الطبعة الأولى: 1998.
- ياسين عبد السلام، العدل: الإسلاميون والحكم، مطبوعات الأفق الدار البيضاء. الطبعة الأولى: 2000.
- ياسين عبد السلام، إمامة الأمة، دار لبنان للطباعة والنشر. الطبعة الأولى: 2009.
- ياسين عبد السلام، تنوير المؤمنات، مطبوعات الأفق الدار البيضاء. الطبعة الأولى: 1996.
- ياسين عبد السلام، حوار مع الفضلاء الديمقراطيين، مطبوعات الأفق الدار البيضاء. الطبعة الأولى: 1994.
- ياسين عبد السلام، سنة الله، مطبعة النجاح الجديدة البيضاء. الطبعة الأولى: 2005.
- ياسين عبد السلام، مقدمات لمستقبل الإسلام، مطبعة الخليج العربي، الطبعة الأولى: 2005.



www.yassine.org

www.change-conf.yassine.org